1. المجتمع المدني في العصر اليوناني

لقد ظهر المجتمع المدني ليحد من تدخلات الدولة ،ويشيع الحرية والمساواة والخير والحق والعدل وهذا ما قامت بتأسيسه الفلسفة مع وجود الكثير من الصدامات مع فكر وقانون الدولة سواء مع الفلاسفة قبل سقراط انكساغوراس وانبادوقلس او مع سقراط او أفلاطون او مع التكيف الذي عمل به أرسطو مع الاسكندر . ولو رجعنا إلى أرسطو فإنه لم يميز بين الدولة والمجتمع المدني ، فالدولة عند أرسطو بصفه خاصة والفلسفة السياسية اليونانية بصفه عامة التي يقصد بها مجتمع مدني يمثل تجمعا سياسيا أعضاؤه هم المواطنون الذين يعترفون بقوانين الدولة ويتصرفون وفقا لها

ولقد أخذ المجتمع المدني على عاتقه تثقيف المجتمع الذي عانى من فراغ فكري وثقافي بسبب الآلة العسكرية الحربية للدولة اليونانية ، وهذا ما فعلته السفسطائية التي لم تنظر للحرب بل توجهت الى سدت الفراغ الفكري الثقافي في المجتمع الناتج من الحرب فهي مدرسة ومؤسسة اجتماعية فكرية.

كما ارتبط المجتمع المدني ببيئة إيجابية، تصاحبه ولا تنفصل عنه، مثل توفر مناخ الحرية الشخصية، المواطنة، حقوق الإنسان، الممارسات الديمقراطية، الحراك الشعبي السلمي، العلاقات الاجتماعية الوطيدة، والمشاركة السياسية ، والبعض من هذه المفاهيم مر عليها الفيلسوف اليوناني ووضح موقفه منها ، سلبا او إيجابا،فقد دعى أرسطو إلى تكوين مجتمع سياسي تسود فيه حرية التعبير عن الرأي و يقوم بتشريع القوانين لحماية العدالة والمساواة ، إلا أن المشاركة في هذا المجتمع السياسي تقتصر على النخبة ، ويحرم منها ومن حق المواطنة العمال و الأجانب والنساء ،وهذا هو الجانب السلبي في تصورات أرسطو المدنية أما بالنسبة إلى شيشرون فلقد أراد العودة لروح الشعب وأساس المجتمع المدني سيكون عنده هو العدالة التي يشكلها العقل الذي يُفهم بوصفه الصالح العام، وجميع تشكيلات الدولة الشرعية تتأسس على (العدالة) التي هي المبدأ الأول، لأن الفساد السياسي يعني زوال

المجتمع المدني .

في اليونانية استخدم مفهوم المجتمع المدني كمرادف للمجتمع الجيد أو الرشيد وسقراط يحمل هوية دينية بانتمائه الى معبد دلفاي ومقاتل ضمن المنظومة العسكرية ويؤكد على مفاهيم العدالة والتسامح والتمدن في المجتمع كسلوك عملي وتنظير مجتمعي ومعرفي . وكل هذا هو تنظير يستند الى التسامح والعدالة والأخلاق والمعرفة مع انه ضمن دولة عسكرية او دينية مستبدة وقد دفع حياته ثمن مبادئه.

أفلاطون عاش وسط مشاكل عديدة سياسية (هزيمة أثينا العسكرية، الاضطراب الاقتصادي، التأزم السياسي، الفساد الأخلاقي) ولم يفلسف الحياة الاجتماعية من دون ربطها بالدولة ، ومدينة أفلاطون انما هو جامع بامتياز للجانب المدني والعسكري والديني كما ان ثقافة أفلاطون هي دينية.

ان المجتمع الغربي ظهر بصورته الأولى مرتبطا بنظرية العقد الاجتماعي التي أحدثت القطيعة بين السياسي (السلطة) والكنيسة (الدين) اذا فالمجتمع المدني يتوسط السلطة العسكرية (الدولة) والدينية الكنيسة .وهكذا كانت الفلسفة اليونانية مع تكيفها فيما بعد لتأسس لأسس الدولة وفق فهم الفلاسفة . ولا يمكن قيام مجتمع مدني قوى في ظل دولة ضعيفة بل هما مكونان متكاملان لهذا يعمد الفلاسفة الى بناء اسس عقلانية ونظام اجتماعي قوي من خلال بناء الدولة.

2. مفهوم المجتمع المدني في العصر الحديث

في سياق انتقال مجتمع أوروبا من النمط الزراعي الإقطاعي محدود الأفق إلى النمط الجديد التجاري الصناعي الرأسمالي بآفاقه المفتوحة، وعبر صراع وتناقض نوعي متعدد الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية، بدأت تراكماته الأولى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في هذه المرحلة الانتقالية، تولدت المفاهيم والأفكار والمدارس الفلسفية معلنة

بداية عصر جديد للبشرية،عصر الحداثة، عصر النهضة والتنوير، عصر المواطنين الأحرار، عصر المجتمع المدني والديمقراطية.

من هنا فإن الحديث عن نشأة مفهوم المجتمع المدني وتطوره في الفكر الغربي «يفترض تحليل مجموعة هائلة من النصوص التي كتبها هوبس وجون لوك وروسو،وكانط وهيجل، وماركس وانجلز ولينين وجرامشي، إضافة إلى ما كتبه أوغست كونت وسان سيمون وتوكفيل وماكس فيبر وآدم سميث وكنز وروزا لوكسمبرج، كما يلزمنا أن نتعرض للمفهوم من حيث هو تصور تجريدي لتطور المجتمع الغربي الحديث بحيث يكون ميلاد المجتمع الصناعي تعبيرا عنه وتصويرا لما صاحبه وواكبه من صراعات وثورات سيكون التعبير عنها هو تطور النظرية الليبرالية من جانب وميلادُ الماركسيةِ وتطورُها من جانب آخر» وبدون ذلك التحليل، الذي يقع على عاتق الطليعة الحزبية السياسية المثقفة بالدرجة الأولى، لن يتم التوصل إلى صياغة وتركيب الرؤية النظرية التحليلية المناسبة لواقعنا العربي الراهن، وما تتطلبه من ضرورة إعادة النظر في مختلف الأبعاد، الأيديولوجية والثقافية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، واستنباط جدلية العلاقة المطلوبة – على الصعيد القطري والقومي، لتفعيل الأطر النقيضة المنظمة والآليات التغييرية لكي تقوم بدورها في تجاوز المرحلة الراهنة ببرنامجها القومي التقدمي القادر على صياغة المستقبل .من ناحية أخرى، فإن تحليل مفاهيم عصر الحداثة والمجتمع المدني سيقودنا إلى استكشاف عمق التباين بين مجتمعاتنا وبين المجتمعات الأوروبية، ليس فقط من حيث التطور الاجتماعي التاريخي وشكله ومحتواه، بل من حيث التطور المعرفي الذي تواصل في حركة متجددة صعودا في الغرب، في حين أنه عاش في الشرق حالة انقطاع وجمود معرفي أو ضمن حلقة دائرية منذ القرن الثالث عشر الميلادي إلى يومنا هذا، عبر استمرار سيطرة النظام القديم وأدواته ورموزه السياسية والاجتماعية، في ظل عوامل داخلية وخارجية مترابطة، أغلقت السبل في وجه كل محاولات النهوض أو محطاته في التاريخ العربي المعاصر، وذلك على النقيض مما جرى في سياق التطور الأوروبي الذي تفاعل عبر الصراع الحاد مع أفكار التنوير والنهضة وأدواتهما وأفسح

المجال لنمو الدور الرائد والهام للبرجوازية الصاعدة وتعاظمها، في مقابل تراجع سلطة النبلاء والكنيسة أو السلطة المطلقة.

3. مفهوم المجتمع المدني في العصر المعاصر

وفى القرن العشرين طرح غرامشى مسألة المجتمع المدنى فى اطار مفهوم جديد فكرته المركزية هى أن المجتمع المدنى ليس ساحة للتنافس الاقتصادي بل ساحة للتنافس الايديولوجى منطلقا من التمييز بين السيطرة السياسية والهيمنة الأيديولوجية

ويعني غرامشي بالمجتمع المدني "الهيمنة الثقافية والسياسية، حيث تمارس الطبقة الاجتماعية هيمنتها على كامل المجتمع كاحتواء أخلاقي للدولة "، وبهذا المعنى قال غرامشي" :الدولة هي المجتمع السياسي زائد المجتمع المدني "وبهذا تكون العلاقة بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي علاقة جدلية، تستمد الدولة عبرها المشروعية من المجتمع المدني خلال عمل آليات السيطرة والتحكم والتوجيه من جهة، وعبر الإقناع والقبول والرضا من جهة ثانية، يتم ذلك عبر من أجهزة و تنظيمات الدولة التي تحاول أن تستمر فعاليتها وشرعيتها بهدف الوصول والتأثير على منظمات وهيئات ع المدني المستقلة نسبيا عن الدولة، هذه المنظمات و المؤسسات التي تشكل قوام المجتمع المدني تغطي فضاءا مجتمعيا واسعا يمتد من الأسرة إلى التنظيم الإنتاجي الخاص والنقابات والمؤسسات الدينية والمنشئات التعليمية، وصولا إلى الأحزاب السياسية والبرلمان وعبر هذه الهيئات يمارس المجتمع المدني فعالياته ونشاطه على مختلف الأصعدة، ويحافظ في الوقت نفسه على سمته الخاصة . أي مدنيته التي تبقى خارج متناول الدولة.

لقد أدخل غرامشي قطيعة جديدة في المضمون الدلالي لمفهوم المجتمع المدني، باعتباره فضاء للتنافس الإيديولوجي، فإذا كان المجتمع السياسي فضاء للسيطرة السياسية بواسطة القوة/السلطة، فإن المجتمع المدني فضاء لثقافية و الإيديولوجية، و وظيفة الهيمنة هي

وظيفة توجيهية للسلطة الرمزية التي تمارس بواسطة التنظيمات، للهيمنة التي تدعي أنها خاصة، مثل دور العبادة والنقابات...الخ وأضاف غرامشي موضحا أن سيادة أي طبقة اجتماعية أو تحالف طبقي تستوجب هيمنتها، هذه الهيمنة الثقافية لا تكون مركزا أو تأتي عن آلية موحدة، بل هي نتاج نشاط متعدد المراكز، يقيم تنظيماته وأجهزته خارج الدولة، في تعريف فضاء المجتمع المدني تحديدا، في محاولة منها (الهيمنة)لإقامة سياسة للإيديولوجية يكون الهدف منها استعادة المجتمع المدني لحقه في ممارسة شرعيته والوصول إلى سيادته على مكونات وجوده الخاصة

لقد ركز غرامشي تحليلاته على البنية الفوقية للمجتمع، إذ ميز فيها بين مستويين كبيرين :مستوى أول، هو ذلك الذي يعبر عنه بالمجتمع المدني، يعني مجموع المؤسسات التي نقول عنها في اللغة المعتادة أنها "داخلية وخاصة "،ومستوى آخر هو المجتمع السياسي أو الدولة، ووظيفتها السيطرة والقيادة.

لقد بلور غرامشي مفهوم المجتمع المدني في ضوء وعيه بخطورة مؤسسات الدولة الأيديولوجية، فدرسها في فاعليتها الخاصة في الدول المتقدمة حيث تلعب دورا أساسيا في إحباط حركات المقاومة والتمرد وخلق "أساطير "حديثة الجماهير وتستبدل الأهداف والرغبات في العالم بديلا زائفا ومستلبا، بينما تبقى الدولة القمعية أساسية في تغذي أحلام العالم المتخلف .بالإضافة إلى تركيز غرامشي على دور المثقفين كعنصر أساسي للوعي، فالمثقف نتاج ثقافة ومنتج لثقافة ينبغي أن تدرس هذه وتلك من أجل تحرير قوى الفكر والإنسان من التبعية للمؤسسات الإيديولوجية.

مراجع

* الموسوعة السياسية : لتأصيل النظري لمفهوم المجتمع المدني متاح على الرابط:
https://political-encyclopedia.org

* مايكل إدواردز :المجتمع المدني النظرية والممارسة، تر :عبد الرحمن شاهين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
* عزمي بشارة:المجتمع المدني دراسة نقدية ،مركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،